(٥٠) ابن عطاء[١]

ذكر الشيخ ابن عطاء رحمه الله:

كان رحمه الله سلطانَ أهل التحقيق، وبرهانَ أهل التوحيد، وفي فنون العلوم ماهرٌ، وفي الأصول والفروع مُفْتٍ، ولم يسبقْه أحدٌ من المشايخ في تحقيق أسرارِ التنزيل ودقائق التأويل، وكان محترمًا موقَّرًا بين الأقران.

وكان الشيخ أبو سعيد الخرّاز رحمه الله يُبالغُ في شأنه، حتى لا يُسلّم التصوف لغيره.

وكان من كبار تلاميذ الجُنيد[٢].

نقل أن جماعةً دخلوا صومعته، فرأوها متنديِّةً، فسألوه عن ذلك، قال: عُرض لي حالةٌ، فكنتُ أدورُ في الصومعةِ، وأبكي من الخجالة. فقيل: وكيف ذاك؟ قال: أمسكتُ في أيام الصبا حمامةً لإنسان، وبعد ذلك أعطيت صاحبها ألف درهم، والحالُ أنَّ قلبي لا يَطمئنُّ، فتذكرت وأبكي على حالي ومالي.

قيل له: كم تقرأُ من القرآن كلَّ يوم؟ قال: أمَّا فيما سلفَ فكنتُ أقرأُ ختمةً كلَّ يومٍ، وأمّا الآن فمنذ أربع عشرة سنة[٣] أقرأُ، واليومُ وصلتُ إلى سورة الأنفال.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، أبو العباس، وترجمته في:
طبقات الصوفية ٢٦٥، حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٢، تاريخ بغداد ٥/ ٢٦، الرسالة القشيرية ٨٩، مناقب الأبرار ٥١٩، صفة الصفوة ٢/ ٤٤٤، المنتظم ٦/ ١٦٠، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٤٠، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٥٥، العبر ٢/ ١٤٤، الوافي بالوفيات ٨/ ٢٤، مرآة الجنان ٢/ ٢٦١، البداية والنهاية ١١/ ١٤٤، طبقات الأولياء ٥٩، نفحات الأنس ٢١٢، طبقات الشعراني ١/ ٩٥، الكواكب الدرية ٢/ ٣٤، شذرات الذهب ٢/ ٢٥٧.

(٢) في (ب): وكان من تلاميذ الكبار. نقل.

(٣) في (ب): فمذ أربعة عشر سنة.

[أقول]: مقصودُهُ أنّه كان يقرأُ قبلُ على الغفلة، والآن يقرأُ على التذكُّر والتدبُّر، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. **والله أعلم.**

نقل أنّه كان لابنِ عطاء رحمه الله عشرة بنين، كلُّهم أصحابُ حُسنٍ وجمال، وبهجةٍ وكمال، وكانوا معه في سفرٍ، فاستقبلهم جماعةٌ من قطّاع الطريق وغلبوا عليهم، وأخذوا يَذبحون[١] أولاده واحدًا بعد واحدٍ، وهو رحمه الله واقفٌ ينظرُ إليهم مُبتسمًا، فذبحوا التسعة، وأمسكوا العاشر[٢]، فنظر إلى أبيه، وقال: ما أقلَّ شفقتك، ذبحوا تسعةً من أبنائك، وأنت تَنظرُ ضاحكًا! قال: يا ولدي، ويا روحي، وقرّة عيني، ماذا أعمل؟ ليس لي يدٌ مع من يَعملُ بنا هذا الأمرَ؛ فإنه قويٌّ ونحن ضعفاء، وهو عليمٌ بصير، يعلمُ ويرى ويقدرُ على الدفع. فلمّا سمعوا منه هذا الكلام، ظهرت فيهم حالةٌ، وأمسكوا عنه، وقالوا: يا شيخ، لو أسمعتنا هذا قبلُ لمّا كنّا نشتغلُ بقتلهم.

أقول: سبحان من أقرَّهُ على ولائه، وصبَّره على بلائه، وأوزعَهُ شكرَ نعمائه[٣]، فهو الذي يرزق أولياءَهُ من اللذّات الحقيقية الروحانية ما يشغلُهم عن الحظوظِ المجازية الجسمانية، فلا يلتفتون إلى من سواه، ولا يطلبون إلاّ إياه.

همُ الناسُ كلّ الناسِ يا أمَّ خالد[٤]

نسألُ الله تعالى بحرمتهم أن يجعلنا من زمرتهم. والله أعلم.

قال ابن عطاء رحمه الله يومًا مع الجنيد رحمه الله: الغنيُّ أفضلُ من الفقير؛

---

(١) في (أ): وأخذوا ينهبون.

(٢) في (ب): وأمسكوا الواحد العاشر.

(٣) في (أ): وأوزعه شكر آلائه.

(٤) عجز بيت، كأني به رواية أخرى لقول الأشهب بن رُمَيْلة:

إنَّ الأُولى حانَتْ بفلْجٍ دماؤهم ... هم القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ

انظر البيان والتبيين ٤/ ٥٥.

فإنَّ الله تعالى يُحاسب الغنيَّ يومَ القيامة بلا واسطةٍ، وذلك لا يكونُ إلاّ محلَّ العتاب، والعتابُ من الحبيب ألذُّ من كلِّ شيءٍ. قال: نعم، ولكن يعتذرُ يومَ القيامة من الفقيرِ، والعذرُ ألذُّ من العتاب. والحقُّ ما قاله الجُنيد، لأنَّ الغنيَّ بعيدٌ من الله، فإنَّ الفقيرَ إذا تواضعَ للغنيِّ لغناه يذهبُ ثلثا دينه[١]، فما ظنُّكَ بالغنيِّ المغرور، على أن الأغنياءَ هم الموتى في الحقيقةِ، وقد ورد: إيَّاكم ومُجالسةَ الموتى[٢]. وأيضًا الغنيُّ لا يدخلُ الجنَّة إلا بعد المحاسبة، ويقف في المحشر لأجلها خمس مئة سنة[٣]، والفقيرُ من أوّلِ الأمر غريقٌ في بحر الاعتذار، فكم بين العتاب والعذر؟!.

نقل أنه قال له بعضُ المتكلّمين: لأيِّ شيءٍ تركَ الصوفيةُ اصطلاحَ العلماء، واصطلحوا على اصطلاحٍ آخر؟ قال: لأن ذلك عزيزٌ عندهم[٤]، فلم يُريدوا أن يطَّلعَ الأغيارُ المنكرون على مقاصدهم.

وله كلمات عالية وإشارات لطيفة منها ما قال: خيرُ الأعمالِ ما عُملَ، وخيرُ الكلام ما قيل، فلا تعملْ عملاً ما عمله أحدٌ، ولا تقلْ كلامًا ما قاله أحد.

أقول: يُريد ما تقرَّرتْ به السُّنة، ومضت عليه الجماعة من العمل والقول،

---

(١) روى الخطيب في تاريخ بغداد ٤/ ٣٦٨، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٢١٤، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «. . . ومن دخل على غنيٍّ فتضعضعَ له ذهب ثلثا دينه».

وجاء في الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٤٦٧، عن أبي ذر قال: لعن الله فقيرًا تواضع لغنيٍّ من أجل ماله، فمن فعل ذلك منهم فقد ذهب ثلثا دينه.

(٢) روى أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٥١، عن محمد بن واسع قال: أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب، وكثرة مثافنة [مجالسة] النساء وحديثهن، وملاحاة الأحمق تقول له ويقول لك، ومجالسة الموتى. قيل: وما مجالسة الموتى؟ قال: مجالسة كل غنيٍّ مترف، وسلطان جائر.

(٣) روى الترمذي (٢٣٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام، نصف يوم» والحديث رواه أحمد في المسند ٢/ ٥١٢، والطبراني في الأوسط ٧/ ٣١٥ (٧٦٠٥).

(٤) في (أ): عزيز فيما بينهم.

ولا شكَّ أنَّ خلافَ ذلك باطلٌ وهراء، وتَقوُّلٌ وافتراء، خلافُ الشرعِ، هثهثة نقولٍ ودحوضٌ[١]، وهو بطلان. والله أعلم.

وقال: اطلب المرءَ في ميدان العلم، ثم في ميدان الحكمة، ثم في ميدان التوحيد[٢]، فإن لم تجدْه في الميادين فلا تطمئنَّ في دينه، إذ لا دينَ له حينئذ.

أقول: المرادُ بالحكمة العلمُ المقرون بالعمل. والله أعلم..

وقال: لكلِّ علمٍ بيانٌ، ولكلِّ بيانٍ لسانٌ، ولكلِّ لسانٍ عبارةٌ، ولكلِّ عبارةٍ طريقةٌ، ولكلِّ طريقةٍ قومٌ مخصوصون بها، من لا يفرّقُ بين هذه الأحوال كيف يجوزُ له أن يُحدّث الناس؟!.

من زيّنَ نفسَه بآداب السُّنة زيَّنَ اللهُ قلبَه بنور المعرفة.

أقوى الغفلاتِ الغفلةُ عن الله، وعن أوامره، والمعاملات معه.

لا تصرفْ أوقاتك الشريفةَ، وأنفاسَكَ النفيسة في هوى نفسك، واصرفْها في أيِّ شيءٍ أعجبَكَ من الموجودات.

و: أصحُّ العقولِ عقلٌ موافقٌ للتوفيق، وشرُّ الطاعات طاعةٌ تفوح منها رائحةُ العُجب، وشرُّ الذُّنوبِ ذنبٌ يستعقبُ التوبةَ.

أقول: مرادُه أنَّ التوبة ينبغي أن تكونَ سابقةً على الذنب، أي المرءُ يكونُ عازمًا جازمًا على طاعة الله تعالى، والاحتراز عن المُخالفة والذنوب، فإنه إذا عزمَ على الذَّنبِ على نيَّةِ التوبة، فلعلَّ توبتَهُ لا تُقبل، أو لا يوفّقُهُ الله تعالى للتوبة، ويكون مثلُه كمثل من يشرب السمَّ على قصدِ أن يشربَ الترياق، فيمكنُ أن لا يجدَ الترياق، أو لا يلحقَ شربه، أو لا ينفعه شربُهُ لغاية تأثير السُّمِّ في مزاجه. والله أعلم.

---

(١) في (ب): خلاف شرع رسول الله، هثهثة ونقول.

(٢) في (ب): اطلب المراء في ميدان التوحيد، فإن.

قال: الاطمئنانُ بالأسباب غرورٌ، والوقوفُ على الأحوال انقطاعٌ عن مُحوّل[١] الأحوال.

وقال: الباطن منظرُ الحقِّ، والظاهرُ منظرُ الخَلْق، فمنظرُ الحقِّ أولى بالتنظيف من منظر الخلق.

و: من كان أولُ دخوله بالهمَّةِ يصلُ إلى مقصوده، ومن كان أولُ دخوله بالتمنِّي لا يصلُ إلاّ إلى الدنيا.

و: أيُّ شيءٍ منعَ العبدَ من الآخرة فهو الدنيا.

و: للقلبِ شهوةٌ، وللروحِ شهوةٌ، وللنفس شهوة، فشهوة الروح القربُ، وشهوةُ القلب المشاهدةُ، وشهوة النفس لذَّةُ الراحة.

و: طينةُ النفس سوءُ الأدب، والعبدُ مأمورٌ بمخالفتها، فمن أرخى عنانَها فهو شريكٌ معها في فسادها.

قيل: أيُّ شيءٍ أبغضُ إلى الله؟ قال: رؤيةُ النفس وأحوالها، وطلبُ الثواب على العمل.

وقال: قوتُ المنافق الأكلُ والشرب، وقوتُ المؤمن الذِّكرُ والاجتهاد.

وقال: بين العبدِ والحقِّ ثلاثةُ أشياء: الاستعانة، والجهد، والأدب. فالاستعانةُ من العبد، والتقويةُ من الله. والجهدُ من العبد، والتوفيقُ من الله تعالى. والأدبُ من العبد، وإعطاءُ الكرامة من الله.

و: من تأدَّبَ بآداب الصالحين، فله صلاحيةُ بساطِ الكرامة، ومن تأدَّبَ بآداب الصدّيقين فله صلاحيةُ بساط الأنس، ومن حرم من الأدب فقد حُرم جميع الخيرات.

و: التقصيرُ في الأدب في القرب أَصعبُ من التقصير في الأدب في البعد،

---

(١) في (أ): انقطاع عن محو الأحوال.

فإنه يُسامح مع العوام بأوقار، ويُعاتِبُ[١] الصدِّيقين بالالتفات.

و: هلاك الأولياء بلحظات القلوب، وهلاك العارفين بخطراتِ الإشارات، وهلاكُ الموحّدين بإشارات[٢] الحقيقة.

و: الموحِّدون على أربع طبقات: الطبقةُ الأولى ينظرون إلى الوقتِ، والثانيةُ ينظرون إلى العاقبة، والثالثةُ ينظرون إلى الحقائق، والرابعةُ ينظرون إلى الحقِّ.

و: أدنى مراتب المُرسلين أعلى مراتب الشهداء، وأدنى مراتبِ الشهداء أَعلى مراتب الصلحاء، وأدنى مراتب الصلحاءِ أعلى منازل المؤمنين.

الغيرةُ فريضةٌ على أولياء الله تعالى.

وقال: من الأولياء ذوِي الغيرة من قتله ثوابٌ، لأنّه بالقتلِ ينجو من آلام نار الغيرة.

و: الهمَّةُ شيءٌ، لا يُبطله شيءٌ ما من العوارض.

و: الهمَّة ما لا يتعلّق بالدنيا[٣].

وقال: العلمُ أربعةٌ: علمُ المعرفة، وعلمُ العبادة، وعلمُ العبودية، وعلم الخدمة.

وقال: حقيقةُ التوحيد نسيانُ التوحيد.

أقول: نظيرُه ما رُوي عن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: التوحيدُ أن لا تتوهَّمَه ـ أي: لا تتوهم التوحيد ـ ومعناه ـ التوحيد ـ: هو أن يصيرَ الموحِّدُ العارفُ غريقًا في بحر التوحيد، بحيثُ لا يبقى له ملاحظةٌ لِمَا سوى الله تعالى أصلاً حتى لا يلاحظ التوحيد أيضًا، لأن التوحيدَ معناه اعتقادُ الوحدانية. والاعتقادُ صفةٌ من صفات الموحّد، لا بدّ من اضمحلال الموحّد مع جميع

---

(١) في (ب): بأوقار، وقال: ويعاتب.

(٢) في (أ): بإشارة الحقيقة.

(٣) في (ب): ما يتعلّق بالرجاء.

صفاته عند انكشاف سلطان الوحدانية، فحينئذٍ لا يبقى إلاّ هو، فظهر أن التوحيدَ هو نسيانُ التوحيد أيضًا، وذلك لا يكون إلا بعد نسيان جميع الأشياء، فيكون مبالغةً في نفي الغير في مقام التوحيد، وبهذا ظهرَ معنى قول عليٍّ رضي الله عنه أيضًا، تأمَّلْ تعرف، فإنه دقيق وأنت بمعرفته حقيق. والله أعلم.

وقال: المحبَّةُ على الدوام عتابٌ، والمحبُّ إذا ادّعى خرج عن المحبة.

وقال: التوبةُ المقبولةُ ما تكونُ مقرونةً بالعمل.

وقال: العقلُ آلةٌ للعبودية، لا للاشتراف على الربوبية.

و: التوكّلُ حسنُ الالتجاءِ إلى الله تعالى، وصدقُ الافتقار إليه.

و: التوكّلُ أن لا ترجعَ إلى السبب إلاّ عند شدّة الفاقة، ولا تخرج عن حقيقة السكون إلاّ عند غاية الاضطرار[1].

وقال: للمعرفة ثلاثة أركان: الهيبة، والحياء، والإيمان.

و: الرضا هو النظرُ إلى الاختيار القديم فيما اختار الله للعبد في الأزل.

للتقوى ظاهرٌ وباطن، ظاهرُهُ حفظُ الحدود، وباطنُهُ النيّةُ والإخلاص.

سئل ابن عطاء رحمه الله عن ابتداء هذا الأمر وانتهائه، فقال: ابتداؤه المعرفة، وانتهاؤه التوحيد.

وقيل: أيُّ الطاعات أفضل؟ قال: دوام المراقبة.

سئل عن الشَّوق، قال: احتراقُ القلب، وتقطُّعُ الكبد، والتهابُ النار فيه.

قيل له: الشوقُ أعَلى أم المحبة؟ قال: المحبَّةُ، لأنَّ الشوقَ لا ينشأُ إلاّ من المحبة.

قال: حين اشتهر في الأكوان، وعصى آدم، بكى عليه جميعُ الأشياء إلاّ الذهبَ والفضة، فأوحى الله تعالى إليهما: لِمَ لَمْ تبكيا على آدم؟ قالا: نحن لا نبكي على شخصٍ عصى ربَّه. فقال الله تعالى: بعزَّتي وجلالي، أجعلكما

---

(١) في (ب): التوكل أن لا ترجع إلى السبب إلا عند الاضطرار.

قيمة الأشياء، وثمنًا لها حتى لا يكونَ لشيءٍ قيمةٌ ولا ثمنٌ إلاّ بأحدِكما، وأجعلُ بني آدم خدَّامًا لكما.

قال له شخص: نيتي أن أختارَ خلوةً. قال ابنُ العطاء: فحينئذ بمن تتَّصلُ؟ فقال الشخص: فكيف أصنع؟ قال ابن عطاء: كن في الظاهر مع الخلقِ، وبالباطن مع الحقِّ، وهذا هو حقيقة العزلة والخلوة.

نقل أنه سُئل يومًا من بعض أصحابه: إنَّ العبدَ بماذا يرتفع؟ قال بعضُهم: بالمجاهدة. وقال بعضُهم: بالمحاسبة مع النفس. وقال بعضهم: ببذل المال. قال ابن عطاء: ما ارتفعَ أحدٌ إلاّ بحسن الخلق.

نقل أن ابنَ عطاء رحمه الله نُسب إلى الزَّندقة، فطلبَهُ عليُّ بنُ عيسى[١]، وكان وزيرَ الخليفة، وناظَرَ معه[٢]، وطالَ بينهما الكلام، وقال ابن عطاء كلامًا خشنًا في وجه الوزير، فغضب الوزير، وأمر أن: شلّحوا الخفَّ من رجليه، وضربوا به على رأسِهِ ووجهه حتى مات رحمه الله، وحشره مع الأبرار، وهو في أثناء الضرب قد دعا على الوزير، وقال: قطعَ الله يديك ورجليك. ثم بعد وفاة ابنِ عطاء غضبَ الخليفةُ على الوزير، وأمرَ بقطع يديه ورجليه، واعترضَ بعضُ المشايخ عليه، بأنه كيفَ دعا على الوزيرِ، والحالُ أنّه وصلَ إلى المقصود بفعله، فما كان الوزيرُ مُستحقًّا للدعاء عليه، بل للدعاء له بالخير، واعتذرَ عنه بعضُهم بأن الوزير لعلّه كان ظالمًا، فدعا عليه الشيخُ لأجل مصلحةِ المسلمين، لا لحظِّ نفسه.

---

(١) هو علي بن عيسى بن داود ابن الجراح (٢٤٤ـ ٣٣٤) وزير المقتدر العباسي والقاهر، أحد العلماء الرؤساء، قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٩٨: الإمام المحدث الصادق الوزير العادل، كان عديم النظير في فنه، كان غنيًا شاكرًا، ينطوي على دين متين وعلم وفضل، وكان صبورًا على المحن، كثير الصدقات والصلوات. عُزل أكثر من مرة وقبض عليه، ونفي إلى مكة، ومنها إلى صنعاء، كانت حياته ملؤها الاضطراب.

(٢) أي فناظره.

وقال آخر: قد علم الشيخ بإلهامٍ أنَّ أمره يَؤولُ إلى هذا، فدعا عليه موافقةً للقدر. أي لتقدير الله وقضائه[١].

وقال آخر: لم يكنِ الدعاءُ مضرَّةً للوزير؛ بل حصلَ له بذلك منفعةٌ حيث وصلَ إلى درجة الشهداء، واحتمل الحقارة والهوان في الدنيا، مع الألمِ الشديد، فإنَّ عقوبَة الدُّنيا وإن كانت كثيرةً يسيرةٌ في جنب عقوبةِ الآخرة.

تمّتْ أخبارُ ابن عطاء رحمه الله، فنسألُ اللهَ الكريمَ الوهاب أن يحفظَ ديننا وإيماننا وإسلامنا عن غضبه وسخطه، وعن شرِّ الشيطان ومكره، وأن يحشرنا مع الأبرار الذين أنعم الله عليهم من الصدّيقين والشهداء والصالحين، وأن يُصلّي على محمَّدٍ وآله أجمعين.

* * *

(١) هذا القول ليس في (ب).